



توقع كثيرون، وتمنى كثيرون، أن لا تنجح المبادرة الروسية من أجل حل سياسي للأزمة السورية. الذين توقعوا هم الذين يريدون وقف القتل والتدمير، اليوم قبل الغد، ويتعلمون إلى حل حقيقي لم يروا ملامحه سواء في مراقبتهم ما يصدر عن موسكو وبمعوتها ميخائيل بوغدانوف أو في استقرارهم المواقف الدولية الأخرى.

أما الذين تمنوا الفشل، وفي طليعتهم الإيرانيون، فلا يريدون للمأساة القاسية التي يعيشها الشعب السوري أن تنتهي، طالما أنهم يحقّقون استفادة قصوى منها.

لكن أحداً لم يستشرف شيئاً مشابهاً لهذا الموت الشنيع لـ «المبادرة» حتى قبل أن تبصر النور. ولا عزاء للذين راهنوا عليها ثم تبيّنوا أنها سراب، ولعلهم تعلّموا شيئاً من هذه التجربة.

لا شك في أن الجميع وقع في فخّ أن روسيا دولة كبرى، ولا يمكن أن تبادر إلا بعد أن تكون درست خطوطها مع جميع المعنيين.

لكن طبع «الدب» الروسي غالب على تطبيعه، إذ لم يفطن إلى أن دور الوسيط يستلزم انزياحه ولو قيد أدنى عن الانحياز لنظام بشار الأسد، بل اندفع إلى ما هو أسوأ حين وجّه الدعوات إلى الحوار إلى أشخاص معارضين (بعضُ منهم موالي

جداً)، أي أنه تولى بنفسه تشكيل وفد المعارضة، وعندما بُرِزَت اعترافات أطلق العبارات الانتحارية القائلة إن الحوار «سيعقد بمن حضر»... حسناً فعل بالاكتشاف المبكر، فما إن أُعلن «تيار بناء الدولة» (رئيسه لؤي حسين معتقل) رفضه صيغة الدعوة، حتى أصدر الرئيس السابق لـ «الائتلاف» معاذ الخطيب بيانه القوي الذي أجهز عملياً على المسعي الروسي، ثم نُشر مضمون رسالة حسن عبد العظيم المنسق العام لـ «هيئة التنسيق الوطني» (اثنان من قياديبها معتقلان، عبد العزيز الخير ورجاء الناصر) إلى وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف يطالبه فيها بتوجيه الدعوة إلى كيانات سياسية لا إلى أشخاص، وبالضغط على النظام لوقف القصف وإطلاق معتقلين لإشاعة مناخ ملائم للحوار.

كانت روسيا عولت كثيراً على مشاركة معاذ الخطيب لإضفاء «شرعية» على تحركها، فهو من «معارضة الخارج» ولم يفوّت فرصة إلا دعا إلى حقن الدماء والبحث عن حل حتى لو تطلب التحدث مع النظام، لكنه اشترط دائماً خطوات إنسانية يبرهن فيها النظام «حسن النية».

وتوقعت سيناريوات متصورة أن يكون الخطيب رئيساً مقبولاً لحكومة «مختلطة» قد تتبّع من حوار موسكو، لكن الرجل لم يجد ولا مرة سعياً إلى أي منصب.

وعندما دعي لزيارة موسكو بحث وشاور ثم قرر التلبية برفقة وفد صغير (يقال إنه سافر على حسابه) ليسمع ويتأكد بأن ثمة مبادرة في الأفق، لكنه فوجئ حين أبلغه بوغدانوف أن لافروف سيستقبله ليسمع منه «بلا مناقشة».

وعرض الشيخ معاذ أفكاره انطلاقاً من توجّهه المعروف، كما كرّره في بيانه الأخير قائلاً أن لا حل من دون رحيل رأس النظام والمجموعة التي ساقـت سوريا إلى المصير البائس الذي وصلـتـهـ اليـومـ.

لكن لافروف سأـلـ «إـذـاـ رـحـلـ الأـسـدـ فـمـاـ سـتـفـعـلـونـ،ـ وـمـنـ سـيـضـبـطـ المـفـاتـلـيـنـ؟ـ».

كان ذلك إشارة واضحة إلى أن الموقف الروسي لم يتزحزز، لكن كان لا بدّ من انتظار الصيغة التي سيُخرج بها دوره كـ «وسـيطـ».

ها هو قد أخفق تماماً، إذ قاده تبنيه شروط النظام والشروط الإيرانية إلى افتضاح «مبادرته».

كان كثيرون راهنوا عليها، آملين بأن تكون هادفة ومتوازنة، إلا أن الواقع بيـنـتـ أنهاـ استـهـدـفـ أمرـيـنـ:

1) استغلال احباطات المعارضة وتشتتها وخلافاتها لتذويبها في إطار رخـوـ يـسـهـلـ دـفـعـهـ إلىـ تـسـوـيـةـ هـزـيـلـةـ قـوـامـهـ بـضـعـةـ حقـائبـ وزـارـيـةـ.

2) نسف مرجعية «جـنـيفـ 1ـ» ونـسـهاـ عـلـىـ حـكـمـ اـنـتـقـالـيـ لمـصـلـحةـ «ـحـوـارـ مـوـسـكـوـ»ـ كـمـرـجـعـيـةـ جـدـيـدـةـ...ـ وـبـمـاـ أـنـ الـهـدـفـيـنـ يـصـبـانـ فـيـ مـصـلـحةـ النـظـامـ فـقـدـ فـهـمـ أـنـ حـلـيـفـهـ (ـرـوـسـيـاـ وـإـيـرانـ)ـ يـسـعـيـانـ إـلـىـ إـعـادـةـ تـرمـيمـهـ،ـ فـأـوـضـاعـهـ هـوـ الـآخرـ لـاـ تـقـلـ اـهـتـرـاءـ عـنـ أـوـضـاعـ الـمـعـارـضـةـ.ـ وـأـيـاـ تـكـنـ تـمـنـيـاتـ الـحـلـفـاءـ وـالـخـصـومـ فـإـنـ فـرـصـةـ حلـ يـبـقـيـ روـسـ النـظـامـ فـاتـتـ مـنـ زـمـنـ،ـ إـذـ لـمـ يـعـدـ خـيـارـاـ وـلـاـ يـمـكـنـ فـرـضـهـ أـوـ تـمـرـيرـهـ.

صـحـيـحـ أـنـ الدـعـوـةـ رـوـسـيـةـ أـشـارـتـ إـلـىـ بـيـانـ «ـجـنـيفـ 1ـ»ـ لـكـنـهاـ رـكـزـتـ عـلـىـ «ـمـكـافـحةـ الـإـرـهـابـ»ـ،ـ أـيـ عـودـةـ إـلـىـ صـيـغـةـ جـاءـ بـهـاـ وـفـدـ النـظـامـ إـلـىـ مـفـاوـضـاتـ جـنـيفـ،ـ وـإـلـىـ صـيـغـةـ تـوـفـيقـيـةـ اـقـتـرـحـهـاـ الـأـخـضـرـ إـلـيـرـاهـيـمـيـ وـلـمـ يـقـبـلـهاـ النـظـامـ لـأـنـهـ تـضـعـ الـبـحـثـ فـيـ «ـهـيـةـ حـكـمـ اـنـتـقـالـيـ»ـ بـمـواـزـاـةـ مـكـافـحةـ الـإـرـهـابـ.

لـكـنـ مـوـسـكـوـ خـطـطـتـ عـمـلـيـاـ لـحـوـارـ مـنـ دـوـنـ أـجـنـدـةـ تـسـهـيـلـاـ لـلـتـلاـعـبـ بـالـأـوـلـيـاتـ،ـ وـفـيـ تـقـدـيرـهـاـ أـنـ «ـأـصـدـقـاءـ سـوـرـيـةـ»ـ انـفـرـضـوـاـ

تقريباً، وأن المواقف الأميركيّة دفعت المعارضة إلى اليأس إذ تبدو واشنطن متخلية عن التزاماتها تجاه المعارضة وأكثر اهتماماً بتلزيم قطع الملف السوري وتوزيعها كـ«مصالح» على الأطراف الإقليمية، وهذه صارت بدورها مهتمة بالحصص التي تحصلها.

لذلك اعتبر الروس أن الفرص سانحة للتغيير قواعد اللعبة ومعايير الحل السياسي، بالاستناد شكلياً إلى «جنيف 1» والاعتماد عملياً على موازين القوى على الأرض.

عندما بدأ الحراك الشعبي لم يكن هناك ميزان القوى أصلاً، بل كان النظام بكامل قوته، وقد استخدمنا، ولم ينجح في إخماد الانتفاضة، وحتى عندما تعسّر هذه قسراً ظل التفوق الناري للنظام، ثم عندما مكّنه الإيرانيون من استعادة بعض المناطق بدت انتصاراته توكيداً لاستحالة بقائه، كما هي حاله اليوم.

والفارق كبير بين تسوية على أساس موازين القوى يفرضها الغازي المحتل، وبين حل سياسي يقوم على تنازلات متبادلة ويرمي إلى صيغة تنصف الشعب وتحصّن التعايش بين فئاته.

لذلك برققت الآمال عندما طرحت المبادرة الروسيّة، لعلها القاطرة الملائمة للنظام كي يقدّم تنازلاته، لكن هذا كان مجرد وهم لأن البنية النفسيّة للنظام تمنعه من تقديم أي شيء خير لشعبه.

وفيما باتت «المبادرة» مترنحة ظهرت تكهّنات بأنّ النظام قد يقوم بخطوة إنقاذها، كأن يُفرج عن المعتقلين أو العدد الأكبر منهم، ولو من قبيل «إحراج» المعارضة، فهل يفعل؟

كانت المعارضة وافقت على الذهاب إلى حوار على أساس «جنيف 1»، لكنها رفضت أن تختار موسكو المشاركين فيه بناء على «فيتو» النظام على كيانات وأشخاص محددين.

في أي حال يُحسب لموسكو ما لم تقصّده أصلاً، ذاك أن «الحصانة» المبدئية التي أمنتها لوجوه معارضة الداخل مكّنت هذه من فتح حوار جدي مع معارضة الخارج، بل أتاحت لهما بلورة تقارب في الرؤى.

وهذا معطى جديد يُظهر للمرة الأولى أن عناصر «الحل» الذي يطمح إليه «الائتلاف» و«هيئة التنسيق» يمكن أن تكون واحدة.

أي أن التحضير لحوار موسكو أدى إلى فرز واضح بين قوى المعارضة المتبنيّة لمطالب الشعب وتلك المدجّنة أو الموالية (قديري جميل، على سبيل المثال) التي طلب حسن عبد العظيم من لافروف أن يصار إلى ضمّها لوفد النظام.

ومن الواضح أن جميع كيانات المعارضة الحقيقية مدركة أن كل ما استطاعت الحصول عليه، وبثمن باهظ جداً، هو ورقة «جنيف 1» التي أثبت مضمونها في القرار 2118 (المتعلق بـ«صفقة» تدمير ترسانة السلاح الكيماوي) واكتسبت بذلك «شرعية» دولية.

ولعل هذه الروح الجديدة التي انبعثت من عثرات المعارضة هي التي شجّعت الخارجية المصرية على المضي في عزمها على دعوة كياناتها إلى حوار موسع للاتفاق على رؤية موحدة للحل السياسي.

لكن مصادر المعارضة دعت إلى معالجة الاعتراض على دعوة ممثلي «الأخوان المسلمين» و«إعلان دمشق» إلى حوار القاهرة، ففي أفضى الأحوال سُيُّعتبر إقصاؤهم رضوخاً لرغبة النظام الذي يعتبرهم أدوات للدور التركي، ويحملهم مسؤولية تحريك الانتفاضة الشعبية ثم إنشاء «المجلس الوطني» كأول كيان للمعارضة في الخارج.

الحياة اللندنية

المصادر: